جذور الرُّومانسيَّة في الشِّعر العربيّ .

إنَّ الشكل التعبيري والصوري والفكري في الشعر العربي القديم كان غالباً كلاسيكياً بمعنى أنه جرى وفقاً لقواعد صارمة وتقليد في العبارة والوزن والقافية . إلا أنَّ روح الشعر كانت غالباً روحاً رومانسية بمعنى الانفعال، كان يزخر فيه وكانت التجارب في معظمها ذاتية كالرومانسية ، ومنذ العهد الأول كانت تجربة الطلل تجربة رومانسية خالصة ، فيها تعبير عن الزوالية المحتمة في متن الأشياء وقدرها وفيها بكاء عن العواطف وموت الأشياء والزمن ، وصورة عن دبيب الموت في خلايا الوجود . وتلحق بتجربة الطلل تجربة المطايا الظاعنات في الغداة. والرحيل كان بالنسبة إلى الشاعر العربي القديم امتداداً من تجربة الطلل والصيرورة القائمة أبداً .

إلا أنَّ الشاعر العربي كان يقع في قبضة الوصف، وهو ملازم للتجارب البدائية التي تطرب في مرحلة أولى لنقل الأشياء

عبر اللفظ والصورة أو الفكرة . ومع ذلك فإن وصف البقرة الوحشية والصحراء والعقاب والسيل والسراب ، إن ذلك الوصف المتمرد في القصيدة القديمة قد يتخذ الصفة البرناسية [١] من كونه مقتصراً على التقرير وما يدنو إلى المحاكاة . إلا أن الشاعر استبطن عبره التعبير عن إحساس عميق بروح هذه المظاهر ولم يولجها في شعره مع أنها كانت والجة في نفسه .

وفي العصر العباسي كثر وصف الرياض ومواضع اللهو والقصور الدراسية المتعفية فضلا عن معالم العمران ومواضع اللهو، وهذه الموضوعات قد تقع كلها في باب الرومانسية. إلا أنه لم تقم في الشعر العربي القديم نظرية رومانسية واعية يلتف عليها الشعراء ويبنون الوجود ويهدمونه بالنسبة إليها ويوقعون عواطفهم ومواقفهم . ودعوة أبي نوّاس الدَّاعية إلى التعبير عن

---

١ البرناسية : حركة جاءت بعد الرومانسية وهي تصف الطبيعة وترسمها بصورة مجسمة في الشعر ورائدها شاعر فرنسي "ده ليل" وسبب هذه التسمية نسبة إلى جبال البرانس في فرنسا .

البيئة القائمة في الحاضرة العباسية والكف عن ارتياد تجربة الطلل وما إليه في قوله :

قُلْ لِمَنْ يَبْكِي عَلَى رَسْمٍ دَرَسْ
وَاقِفـــاً مَـا ضَرَّ لَوْ كَانَ جَلَسْ

إنّ تلك الدعوة كانت متهمة بالتأثر بالنزعة الشعوبية [١] ولم تتسع وتبلغ من المدى ما يمنحها صفة الشمول . فليس في الشعر العربي ولا النقد العربي القديمين وعي للتجربة الرومانسية و تأكيدٌ عليها وإقامة الشروط والتبريرات لها ، إن هي إلا خواطر وسوانح تعبر بالشاعر من طبيعة تجربته ذاتها .

ومع ذلك كله ، فإننا نقع على لمح ولمع رومانسية واضحة المعالم في بعض الشعر القديم . وإذا عدنا إلى تجربة امرئ القيس ،

---

[١] النزعة الشعوبية : محاولة طمس ما هو جيد للعرب ، وقام بهذه الحركة غير العرب (الفرس واليهود تحديداً)، أي شعوبٌ أخرى انتقدت العرب .

نجده وقد خطف في لحظات رومانسية متفوقة عبر الطّلل وبخاصة في قوله : [١]

أَلَا عِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلَلُ البَالِي
وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كَانَ فِي العُصْرِ الخَالِي
وَهَـلْ يَعِمَـنْ إِلَّا سَعِـيدٌ مُخَلَّـدٌ
قَلِيـلُ الهُمُـومِ مَـا يَبِيتُ بِأَوْجَالِ [٢]

ومثل هذين البيتين الطلليين قد يبدوان تقريريين في طالعهما الظاهر ، فإذا أمعنا فيهما ألفيناهما مفعمين بالروح الرومانسية والوجود الوجودي والماوراني .

وإنَّ الشاعر في ذهوله وانخطافه يخاطب الطلل وهو كناية عن حجارة ونؤي ووتد وموضع أثافي ، يخاطبه وكأنَّه يخاطب

---

[١] ديوان امرئ القيس ص ٢٧ .

[٢] بأوجال : الأوجال جمع وجل ، وهو الفزع .

إنساناً يشاركه المعاناة. ولعلَّ الجاهلي وكان ابن البداهة المبرمة في يقينه الداخلي ، أحس أنَّ في تلك الجوامد الصَّامتة أرواحاً خفية تناديه وتناجيه بصمت وتتكلم دون كلام وتُصغي دون أن تسمع .

ولقد تجاوز الشاعر عبر ذلك الحدود المادية أو الوصفية المقررة ونفذ فيما وراء العقل وتخطاه دون أن ينقصه ، وتلك كانت نوعاً من الرومانسية الفعلية بالحياة والمعاناة وليست بالنظرية والمبادئ الواعية . إلا أنَّ الشاعر يُردف بأنه لا سبيل إلى إسعاد الشيء الذي يزول ويتعفى . وهنا تطرأ على الشاعر تجربة الزمن الذي ينقض الأحوال ولا يدع الأشياء تقيم على ما يرغب الأحياء منها .

إنَّه شعور التولي والنزوح وهروب الثواني بالعمر فيما هي تعدو بنا أو نعدو بها . والشاعر يقول إنَّه مادام الزمن يعبر فليس من سعادة تُقيم ، وليس من حقيقة باقية . ثمَّ إنَّه يضيف بأن السعادة لا تؤاتي إلا الملحد الذي لا يبيتُ تحت وطأة الهموم

والخوف . ولقد نفح الشاعر في قلب الطلل العافي تجربة زوالية وعدمية بل تجربة الخوف والتوقع من غدرات الزمن وانتكاصاته .

فهذا الطلل كما بدا خلال هذين البيتين هو طلل رومانسيّ ، داخلي وتجربة الزمن والحياة والموت والسعادة والتعاسة ومعاناة الترجي والقهر ، هذه كلها تحول ذلك الرسم إلى حالة تقمَّصت فيها زوالية الأشياء وانخطافها في قدرها المكتب لها دون إرادة . فامرؤ القيس عانى الحياة والطبيعة من الدّاخل وتلك هي الرومانسيّة الفعلية .

والمهم في ذلك كله الخوف الغامض الذي لا باعثاً ظاهراً له في قوله: " ما يبيتُ بأوجال " وكأنَّ أمرأ القيس كان يحس بأنَّ الإنسان متروك لقدره وأنَّ الدَّهر يتربص به في كلِّ حين ، فالطلل هو هنا الشاعر نفسه ، وقد تنفس عن همومه وغمه من خلال الأنقاض وهي مثله في تهدّمها وخرابها .

وفي القصيدة التي نظمها هذا الشاعر وهو يشطر وجهه إلى القيصر ، وقد مرَّ بحوران تقع على نوعٍ من الوجد الرومانسيّ الشديد الشحوب والاصفرار ، إنَّه لم يعد يحنّ إلى الطلل بل البادية كلها وكأنها استحالت إلى رمز للنعيم وما دونها رمزاً للنعيم وما دونها رمزاً للجحيم . يقول : [١]

أَلَا هَلْ أَتَاهَا وَالحَوَادِثُ جَمَّةً

بِأَنَّ امرأَ القَيْسِ بنَ تَمْلُكَ بَيْقَرَا

فَلَمَّا بَدَتْ حُورَانُ وَ الآلُ دُونَهَا

نَظَرْتَ فَلَمْ تَنْظُرْ بِعَيْنَيكَ مَنْظَرَا

تقطَعُ أسبابُ اللُّبَانَةِ وَالهَوَى

عَشِيَّةَ جَاوَزْنَا حُمَاةَ وَشَيْـــزَرَا [٢]

---

[١] ديوان امرئ القيس ص ٦١ .

[٢] حماة وشيزرا : موضعان في ناحية الشام .

فالشاعر يأسى ويحزن أنه غدا ببقرا أي غدا من أبناء المدن وتلك داهية ألَّمت به وكأنَّ الإقامة في المدن من تلك الفواجع التي يلقي بها الدَّهر على أبنائه الواهين بين قبضته ، والرومانسية تظهر في ذلك الحنين ومعاناة الغربة بين أحضان العالم المتجهِّم ، الفاقد الصلة بالنفس والمظاهر التي تغدو كأنها جدران لمنفى .

ولقد خطف البرق ونزل المطر والشاعر يستطلع مَصاب البرق والمطر لعله ينزل في أرض الحبيبة. ولعله أراد أن يحمّله التحية لها أو أنَّه يحسده على النزول في تلك الأرض البارحة ، وهل بعد أصفى في الوجد الرومانسيّ من هذه الفلذات الموحشة الناحية على البعد والقرب والتي تخفق بمثل الأنين للبرق الذي يخطف المطر الذي ينهمر وكان الشاعر قد بثَّ فيها وحملها فيما فوق العقل تجربة النزوح والفراق والصبابة تلك كانت رومانسية أولى بدائية عفوية، حميمة، لم تنزُل فيها لعنة الوحي والنظريات والمبادئُ

والفعل وردَّة الفعل وهدم الكلاسيكية والتأسيس للرومانسية من دونها .

هنا الإنسان يواجه الكون بالبداهة والحنين والندم والغربة والألم والوهن ولا ينكر ضعفه وهزاله بين يديه ، حتى أنَّه يتجاوز حدوده الممكنة ويُحمل المطر تحيته وحنانه ووجده .

وإذا عدنا إلى وصف امرئ القيس للمرأة لوجدنا أنَّه يجمع لها شتات الطبيعة ومظاهر متباينة ليبدع معادلة لها .

يشبه لونها بلون بيض النعام الأبيض المصفر وقد غذى بنمير الماء العذب البكر . وقرن عينها بالظبية وشعرها بقنو النخلة وساقها بالقصب المذلل بالماء وجعل وجهها يضيء الليل كمصباح راهب .

وفي الظاهر يخيل إلينا أن أمرأ القيس شخص حسي أمام المرأة ، يجسد إحساسه بموضوع الفتنة فيها .

إلَّا أنَّ التقصي فيها يطلعنا على أنَّ الشاعر أضمر حسا بحس وأنَّه كان يعبر عن نوع من الشهوة إزاء جسد حبيبته ، فهو يبصر لونها وساقها ، ولكنه يتحسسها في الآن ذاته ، ويحس بأنهما نديان طريان ، مرويان من الداخل .

وقد ألف بين حاستي اللمس والبصر في لحظة واحدة وعبر صورة متآلفة. وهذا الإحساس العميق قد ما يدنو من البعد الرمزي فضلاً عن المظهر الرومانسيّ. والتوحيد بين المرأة والطبيعة في ذلك الشعور العفوي الحاد العميق ، قد يكون منبعثاً من حس رومانسيّ عميق بفتنة المرأة والطبيعة معاً ، ولننظر في قوله واصفاً حبيبته :[١]

إِذَا قَامَتَا تَضَوَّعَ المِسْكُ مِنْهُمَا

نَسِيمُ الصّبَا جاءتْ بِزَيَّا مِنَ القُطُرْ[٢]

---

[١] ديوان امرئ القيس ص ١٥٧ .

[٢] القطر : العود الذي يتبخّر به .

كأَنَّ النَّجَارَ أَصْعَدُوا بِسَبِئَةِ

مِنَ الجَصِّ حتَّى انزلُوها عَلى يُسُرْ

كأنَّ المُدَامَ وصَوبَ الغَمَامِ

وريحَ الخُزَامى ونشر القُطُرْ

يُعَلُّ بِهِ بَرْدُ أَنْيَابِهَا

إذا طَرَّبَ الطَّائِرُ المُسْتَحِرْ[١]

فليس هناك فرقٌ بين جمال الطبيعة في شتى مفاتنها وبين حبيبة الشاعر . فالصبا والخمرة والغمام في مائه والخزامى والبخور هذه كلها قائمة فيها .

ولنا أن نتمثل بمطلع المعلقة وفيه يقول :[٢]

---

[١] الطائر المستحر : المصوّت بالسحر .

[٢] ديوان امرئ القيس ص ٩ .

وُقُوفاً بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيُّهُم

يقولونَ لا تَهْلِك أسىً وتجمَّل

وإنَّ شِفَائِي عَبْرَةٌ إنْ سَفَحْتُهَا

فَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ

كَأَنِّي غَدَاةَ البيْنِ يَومَ تَحَمَّلُوا

لَدَى سَمُرَاتِ الحَيِّ نَاقِفُ حَنْظَلِ[1]

فَفَاضَتْ دُمُوعُ العَيْنِ مِنِّي صَبَابَةً

عَلَى النَّحْرِ حَتَّى بَلَّ دَمْعِي مَحْمَلِي

وَيَوْمَ عَقَرْتُ لِلْعَذَارَى مَطِيَّتِي

فَيَا عَجَباً مِنْ رَحْلِهَا المُتَحَمَّلِ

فَظَلَّ العَذَارَى يَرْتَمِينَ بِلَحْمِهَا

وَشَحْمٍ كَهُدَّابِ الدِّمَقْسِ المُفَتَّلِ[2]

---

١ السمر : شجر أم غيلان ، وهي شجر الصمغ العربي ، والناقف : المستخرج حب الحنظل ، والحنظل له حرارة تدمع منها العين .

٢ الدمقس : الحرير الأبيض .

فهذه أبيات رومانسية بالذكرى والندم والدموع ، وفيها من الرومانسية المغامرة في ذبح المطية وإطعامها للعذارى وكأنَّه يتهتك بكل ما يحرص عليه الآخرون وبدلاً من أن تكون المطية للقتال ، فإنه يذبحها للذة واللهو ، معارضاً بذلك واقع المجتمع والعصر صادراً عن يقين إلحادي بالقيم الأخلاقية والاجتماعية التي يحرص عليها الآخرون .

ويمكننا كذلك أن نولج تجربة عنترة المتجهمة السوداء وحنينه وحنانه وقسوته والذكرى التي فيها رومانسية واضحة، وخمرة طرفة العدمية المظلمة ومعاناته للموت القريب البعيد .

إنَّ ذلك كله يقع في التجربة الرومانسية الفعلية وإن كان أصحابه لم يعوها بوعيهم النظري إذ لم تقو في عصرهم نظريات شعرية . وأيا ما كانت الحال ، فإن التجربة الرومانسية هي تجربة عميقة في النفس البشرية ، بل إنها لازمتها منذ عهدها الأول وبقدر ما يوغل الإنسان في بداوة الشعر تتبدى له الملامح والتجارب

الرومانسية المفعمة بالبداهة والعفوية ، حين حاول الشاعر أن يعانق روح الكون .

ولسنا بصدد إحصاء معالم الرومانسية كلها في الشعر القديم لكننا ننوّه بأنها كانت قائمة في طباع القصيدة وطبائعها .